ISSN 0970-3713

مجلة علمية ثقافية ، جامعة، فصلية

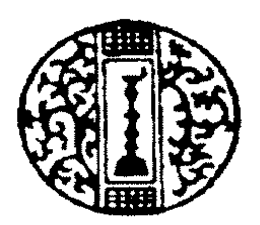
ثقافة الهند

المجلد ٥٣ العدد ١

٢٠٠٢م

رئيس التحرير

س ضياء الحسن الندوي



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

ازاد بهاون، نيو دلهي

الهند

محتويات العدد

حركة التصنيف
في التراث العربي بعد سقوط بغداد
"رؤية عامة"

بقلم: د/ عبد الإله نبهان

لعله من المشروع أن نبدأ هذا الموضوع بالتساؤل : و لماذا حركة التصنيف بعد سقوط بغداد حصرا؟ و هل اختلفت حركة التصنيف اتساعا وشمولا بعد سقوط بغداد عما كانت عليه قبل سقوطها؟ و إذا كان الأمر لم يختلف فلم هذا الموضوع بالذات؟ إن تأمل الأخبار المدونة في سقوط بغداد و إحراق مكتباتها و تدمير معالمها ، وفي كتب مكتباتها في دجلة على نحو وحشي بعيد عن أي مفهوم حضاري، فخيل إلى الناظر أن العلم ا ندرس منذ ذاك لا ندرس أسبابه، و أنه لن نقوم له قائمة، و أن على الأمة التي أتلف تراثها المدون أن تعود إلى الوراء لنبدأ من جديد أن استطاعت البدء.

و إذا كنا لا نشك ولا أحد يشك في أية طائفة من التراث المدون قد أتلفت نسخه الوحيدة في خراب بغداد، إلا أننا نعلم أن مراكز العلم في العالم العربي الإسلامي كانت قد انتشرت شرقا و غربا، و أن مراكز علمية كبيرة

و أساسية كانت قد تأسست منذ أيام الأيوبيين وتابعت نموها أيام المماليك في بلاد الشام ومصر و غيرهما، كما أن نكبة بغداد لم تكن الإبداع الوحيد الذي قدمه التتر، إنهم قدموا إبداعات أخرى في كل مراكز العلم التي داستها سنابك خيولهم، كما أن الأسبان لم يكونوا مقصرون عن التتر في هذا الميدان، فإنهم أحرقوا في غرناطة وحدها في أخر القرن التاسع الهجري مكتبة كان فيها ثمانون ألف مجلد على أقل تقدير، و طافوا في المدينة وأخذوا ما في أيدي الناس من الكتب و أحرقوها.

نعود إلى القول : بأن هذه الأخبار و ما جرى مجراها تحفز على التساؤل عن حركة التصنيف ما آل إليه أمرها بعد كل هذه النكبات؟ بل إننا فعلا سمعنا شكوى السيوطي من قلة عدد الكتب بين أيدي المتأخرين، قال :"وقد ذهب جل الكتب في الفتنة الكائنة بين التتر وغيرهم، بحيث أن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين و المتأخرين لا تجيئ حمل جمل واحد" و هذا إن دل على شئ فإنه يدل على إحساس العلماء بفداحة الرزء بضياع جانب كبير من التراث العربي الذي عرفنا أسماء بعض من أثاره مما بقي لنا من الفهارس و كتب البرامج....

إن رد الفعل العسكري على هجمة التتر على بغداد كان سريعا وحاسما، إذ لم يكد يمضي عامان على سقوط بغداد (١٧ كانون ثاني ١٢٥٨م) حتى حاقت الهزيمة الحاسمة بجحافل المغول في الثالث من أيلول ١٢٦٠م في عين جالوت. و كان الرد العلمي الثقافي مستجرا زمنيا، فلم يتوقف أو يتمهل أو يتأخر، ففي الوقت الذي كانت فيه بغداد تتهاوى، وحضارتها تتبدد، و مكتباتها تلتهما النيران، كان العلماء في دمشق والقاهرة و حلب و الأندلس و القيروان ..... يتابعون دروسهم في تلك المدارس

الكثيرة، وفي رحاب مساجدهم الكبيرة و الصغيرة، و حول سواريها كان التلاميذ يتحلقون حول أساتذتهم يقرؤون العلوم. و يعقدون مجالس التحديث و الإملاء، و يقرؤون كتب السيرة و أخبار التاريخ، و قد استقر عندهم أن الجهاد ليس فقط في ساحات القتال و خوض المعارك، بل إنه أيضا في حفظ تراث هذه الأمة و نقله إلى الأجيال، و نحن لا نزعم هذا زعما و ننسيه إليهم و نحملهم ما يطيقون و ما لا يطيقون، بل إن تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) صرح بذلك على نحو لا لبس فيه إذ قال " و قد أمرنا الله بالجهاد في نصرة دينه ، إلا أنه سلاح العالم علمه و لسانه، كما أن صلاح الملك سيفه و سنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين و المشركين، كذلك لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائفين المبتدعين " و لا شك أن نص السبكي هذا يعين فيما يعنيه النضال العلمي خطابة و تصنيفا ... وفعلا فقد أقبل العلماء على التأليف إقبالا عجيبا منقطع النظير، حتى إننا اليوم لنقف موقف الدهش و العجب أمام فهارس مؤلفاتهم، بل إنه أحدنا ليسائل نفسه كيف تسنى لأحدهم في عمر محدود أن يؤلف مثل تلك الكثرة الكاثرة من المؤلفات الضخمة، بل إنني عندما أنظر إلى كتب السيوطي و ابن منظور والصلاح الصفدي لأسال نفسي: لا كيف صنفوها، بل كيف تسنى لهم نسخها و هي على ما هي عليه من الضخامة و الاتساع؟ و من هنا وجدتني أمام العنوان الضخم لهذا البحث مضطرا إلى النظر في بواعث التأليف واتجاهاته و موضوعاته الكبرى، عوضا من أنه أسترسل في تعداد المؤلفات و أسماء المؤلفين مما اشتملت عليه كتب الفهارس.

وقد يلوح بادئ ذي بدء، في ضوء تصريح السبكي السابق، أن سبب الإقبال على التصنيف سبب ديني بحت، و نحن و إن كنا لا ننكر هذا السبب

الديني إلا أننا نضيف إليه أسبابا أخر منها الذاتي و منها الموضوعي، فمن أبرز الأسباب الذاتية حرص المؤلفين على رفعة المكانة العلمية في عصرهم، و تأكيد وجودهم العلمي، و نصرة مذاهبهم و الحرص كذلك على خلود الذكر بعد موتهم، أما الأسباب الموضوعية فكثيرة، منها ما أشار إليه السيوطي من فقدان الكتب بسبب الكوارث، و حاجة أهل العلم إليها ، و منها طائفة من الكتب القديمة الكبيرة قد قلت نسخها بين أيدي الناس، و هؤلاء لم يعودوا بحاجة إلى المطولات و الأسانيد، فاتجه نفر من العلماء إلى اختصار تلك المطولات و تهذيبها و وضعها بين أيدي طلبة العلم، و من هنا كان معظم ما خلفه ابن منظور (ت ٧١١هـ) إنما هو مختصرات للمطولات كاختصاره للأغاني و تهذيبه لتاريخ ابن عساكر و لسرور النفس للتيفاشي واختصاره لغيرها، كما نذكر في هذا الصدد كتاب الحيوان الكبير الذي هو تهذيب لحيوان الجاحظ و مؤلفه كمال الدين الدميري (ت ٨٠٨هـ)، كما نذكر تجريد الأغاني لابن واصل الحموي (ت ٦٩٧هـ) و تذكرة داود الانطاكي (ت ١٠٠٨هـ) في الطب و هي ملخصة عن قانون ابن سينا وغيره ... إلا أن هذا الاتجاه إلى اختصار و التهذيب لم يكن هو الوحيد، فإذا كانت الحاجة إلى المختصرات ملحة في مجال، فإنه الحاجة إلى الشروح المطولة ذات السمة الموسوعية كانت قائمة في مجالات أخر، و خاصة في مجالات التعليم، فقد كانت الحاجة هنا مزدوجة، فمجالس التعليم تطلبت المختصرات و استدعت تأليف المنون الموجزة جدا ليسهل حفظها، و كانت هذه المتون بحاجة إلى الشروح، توضح عباراتها، و تجلو مقاصدها ، وتبسط القول يا مسائل الخلاف فيها، و تطب في القول لاستيعاب المسائل النادرة التي لا تفي بها المختصرات ، و من هنا وجدنا أن مكتبة كاملة تتكون حول متن من المتون، فمن الألفية لا بد مالك النحوي (ت ٦٧٢هـ)

كان محورًا لنشاط نحوي كبير قام به عدد من الشراح، و قل مثل ذلك عن كتابه التسهيل، أما مفصل الزمخشري فإن الشروح التي ألفت عليه بعد سنة ٦٥٦هـ تجاوز العشرين شرحا، عدا من نظمه نظما و أفرد شواهده بالتأليف، و يصدق هذا أيضا على متون الفقه و متون الأصول في مختلف المذاهب الفقهية ... أضف إلى ما سبق ذلك الاتجاه إلى التاريخ و إلى التأليف فيه على نحو غزير جدا، وزد على ذلك الاتجاه إلى تأليف الموسوعات الكبيرة الشاملة في الأدب و المعارف الهامة، و المعجمات الكبيرة التي تستقصي كل كبيرة و صغيرة، و تجمع ما تفرق في سائر ما سبقها، كما برز اتجاه إلى التأليف في الفقه المقارن و الفقه الحديثي، و إلى جمع كتب الحديث السابقة في كتب كبيرة شاملة كجامع المسانيد و جامع الأصول و الجامع الكبير... أما كتب التفسير فحدث و لا حرج، إذ ستجد أمامك قبنا كبيرا يشتمل على التفاسير المبسوطة و حواشيها و مختصراتها،خذ على سبيل المثال ما وضع من الحواشي على تفسير البيضاوي و على كشاف الزمخشري...

إن ما قدمناه حتى الآن يدل على أن حركة التصنيف بعد سقوط بغداد نشطت نشاطا ملحوظا، و سارت بخطي لاهثة محمومة لتفويض ما ذهب من جهة، و لحفظ تراث الأمة العربية في سبيل المحافظة على شخصيتها الحضارية أمام عوامل القهر و الإفناء من جهة أخرى ، كما كانت هذه الحركة على نحو ما متويضا عن فقدان السلطتين السياسية والعسكرية اللتين آلتا إلى غير العرب منذ زمن بعيد.

و من الصعب إن لم يكن مستحيلا أن نتتبع حركة التصنيف في جزئياتها و شتى فروعها في بحث محدود، مع أن مادتها العلمية ناجزة،

و فهارسها عتيدة جاهزة ، بل إن بعضا من إنجازاتها أ حييت و هي الآن بين أيدينا مصادر لا يمكن الاستغناء عنها، و لا يقوم غيرها مقامها لسعتها وشمولها و إحاطتها، بل إن استعراض آثار مؤلف واحد استعراضا اسميا يستغرق صفحات عدة، لذلك رأيت أن أقتصر على بعض إذ لا يمكن الإحاطة بكل، و رأيت أن يكون الكلام في حركة التصنيف ذات الطابع الموسوعي أولا لأن الكلام فيها محدود.

و من أبرز موسوعات ذلك العصر نذكر أولا " مناهج الفكر ومناهج العبر " لجمال الدين محمد ابن إبراهيم المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ) و هو موسوعة في أربعة أجزاء، جعل أولها للسماء و الفلك والثاني للأرض و ما عليها و جغرافيتها، و خصص الثالث للحيوان والرابع للنبات.

أما الموسوعة الثانية التي سنذكرها فهي كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب" لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ)، و قد جاءت هذه الموسوعة في نيف و ثلاثين مجلدا، بين أيدينا منها اليوم ثمانية و عشرون مجلدا مطبوعا محققا يمكننا أن نتحدث عنها حديث العارف. و أهميتها العلمية لا في ذاتها فقط و لكن في معرفة المصادر التي اعتمدها النويري في تصنيف موسوعته."

اتصل النويري بالسلطان الناصر، و علت مرتبته لديه، إلى أن ولاه نظر الجيش بطرابلس الغرب، ثم فسدت العلاقات بالوشايات، مما أدى إلى قطع صلته بالديوان السلطاني، و اتجه إلى العمل بنسخ الكتب و بيعها، وأتاحت له هذه المهنة، بالإضافة إلى ما اكتسبه في ثقافته الأساسية و عمله الديواني أن يقلب صفحات الأسفار و يعرف خصائص الكتب، و يحيط خبرا

بالمكتبة العربية، مما أوحى له بتأليف عمله الموسوعي الضخم، بعد أن ترك وظيفته " و رغب في صناعة الآداب، و تعلق بأهدابها ، و انتظم في سلك أربابها، فامتطى جواد المطالعة و ركض في ميدان المراجعة، و اثر أن يجرد منها كتابا يستأنس به، و يرجع إليه، و يعول فيما يعرض له من المهمات عليه، فاستقر الرأي على خمسة فنون..." و كان الفن الأول في السماء و الآثار العلوية و الأرضي و المعالم السفلية، و الفن الثاني في الإنسان و ما يتعلق به، و الفن الثالث في الحيوان الصامت، و الفن الرابع في النبات، و الفن الخامس في التاريخ، و اشتمل كل فن من الفنون الخمسة هذه على خمسة أقسام و كانت هذه الموسوعة خلاصة مئات المراجع التي رجع إليها النويري و نخلها و لخصها، و نذكر منها على سبيل المثال كتاب نزهة المشتاق و اختراق الافاق للادريسي، و مناهج الفكر و مناهج العبر للوطواط و إحياء علوم الدين للإمام الغزالي و الملل و النحلل للشهرستاني ومجمع الأمثال للميداني و فقه اللغة للثعالبي، و عشب الطب القديم و الأدوية و الأعشاب و سائر دواوين الشعراء التي اختار منها ما يناسب موضوعاته، و يناسب حاجة الناس إليه، فقد ذكر أنه لم يورد إلا ما غلب على ظنه أن النفوس تميل إليه، أو أن الخواطر تشتمل عليه، و لو علم أن فيه خطأ لقبض بنانه و غض طرفه. و من جدير بالذكر أن الفن الخامس و هو التاريخ استغرق ثلث هذه الموسوعة و بلغ اثنى عشر مجلدا كبيرا، بدأ فيه المؤلف من بداية الخلفية - كما تصورها الكتب الدينية - جريا على عادة القدامي من المؤرخين، ثم ساق تاريخ الأنبياء و ذكر أممهم، ثم اتسع في تاريخ العرب والإسلام حتى عصره مارا بتاريخ شتى الدول التي نشأت في ظلال دولة الخلافة و على حواشيها منتهيا بتاريخ سلطان مصر انذك و هو أبو الفتح محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور أبي المظفر كلاوون الصالحي.

ولم يؤلف النويري غير هذا الكتاب ، و كفاه. لقد كان كتابه موسوعة لعصره و موسوعة للأدب و فنونه - بالمعنى العام للأدب - و موسوعة للثقافة العربية حتى يومنا هذا.

أما الموسوعة الثالثة التي سنذكرها فهي كتاب " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابد فضل الله العمري أبي العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى، و هو من مواليد دمشق عام ٧٠٠هـ و فيها تلقى علومه و في القاهرة و الإسكندرية و الحجاز و تولى القضاء في القاهرة و توفي بدمشق عام ٧٤٩هـ. عرف بقوة الذاكرة و غزارة المحفوظ، و كانت له معرفة دقيقة بتاريخ المغول والهند و الترك، و بجغرافية الأقاليم... و كانت موسوعته شاملة ذلك كله: الأدب و التاريخ و الجغرافية و التاريخ الطبيعي مما استغرق أكثر من عشرين مجلدا، و قسمها إلى قسمين الأول في الأرض وما يلحقها، و الثاني في سكان الأرض. و أورد في كتابه ما جمعه من معلومات تاريخية جغرافية و ما يتعلق بالمسالك و الممالك و الرياح و عجائب البر والبحر، و تحدث عن أمهات البلاد، و اتسع في الحديث عن مصر و الشام والحجاز، و ترجم للأطباء و العلماء و الفقهاء و أعلام السياسة و الإدارة ودقق في تواريخ المغول و الهنود و الأتراك و الأكراد فضلا عن الأمم الأخرى.

و مما يؤسف له أن هذه الموسوعة التي شهد بقيمتها و نفاستها كل من رجع إليها، لا تزال مخطوطة، لم يطبع منها حسبما أعلم إلا قطعة صغيرة. و منها نسخة تامة مصورة في مصر، كان شيخ العروبة أحمد زكي باشا و جمع شتاتها من مكتبات العالم، و وضع مصورتها بين أيدي الباحثين في دار الكتب المصرية.

أما الموسوعة الأخيرة التي سنقف عليها فهي كتاب " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" للقلقشندي أحمد بن علي الذي ولد في القاهرة عام ٧٥٦هـ و برع في الفقه و الأدب، و كتب في الإنشاء و ناب في الحكم وتوفي عام ٨٢١هـ، و من أهم مصنفاته عناية المذكور، و من بواعث تأليفه بالإضافة إلى ما كنا ذكرناه هو عمله في ديوان الإنشاء، و أنه لمس ما تتطلبه صنعة الكتابة من ثقافة موسوعية شاملة، و هي ثقافة واسعة و معقدة، استغرق الحديث عن عناصرها بعض المجلد الأول من صبح الأعشى و كل المجلد الثاني و بعض الثالث. و تنقسم هذه الثقافة إلى قسمين كبيرين هما:

(١) ما يحتاج إليه من الأمور العلمية

(٢) ما يحتاج إليه في الأمور العملية

و الأمور العلمية تعني علوم العربية من لغة و نحو و صرف ومعان و بيان و بديع و قران و حديث و خطب الخطباء و رسائل البلغاء وقصائد الشعراء و أمثال الحكماء، ثم معرفة أنساب العرب و العجم وأيامهم و وقائعهم و مفاخرهم و الوقوف على عاداتهم، و معرفة تواريخ الأمم وخاصة تاريخ الخلافة الإسلامية و نظمها و وظائفها و أحكامها و أعيادها ومواسمها، و الدول التي اشتملت عليها مع دراسة كل دولة على حدة، مع عناية خاصة بالديار المصرية، بدءا مما قبل الإسلام، يلي ذلك تتبع العصور الإسلامية التي تعاقبت عليها ابتداء من عصر الولاة فعصر الطولونيين وعصر الإخشيديين فالفاطميين فبني أيوب فعصر المماليك، ثم تأتي بعد ذلك الثقافة الجغرافية أو علم المسالك و الممالك، ثم ينص على ضرورة معرفة اللغات الأخرى غير العربية كالفارسية و الرومية "اليونانية" و السريانية والعبرية و غيرها من لغات الأمم التي لها صلة ما بدول العرب. ثم وقف

القلقشندي طويلا عند فن الوصف ، و هو فن متسع يشمل كل ما يحتاج إليه الكاتب من أوصاف الرجال و النساء و ما يشترك فيه الجنسان من الصفات، ثم أوصاف الحيوان و خاصة الخيل ، ثم يتسع في وصف الطير و سائر أنواع الوحوش التي تصيد و تصاد، ثم هنالك وصف الآلات المستخدمة في موكب الملوك و آلات الركوب و آلات السلاح والحصار و الموازين وآلات اللعب كالشطرنج و النرد. و لا غنى للكاتب من أن يعرف الأحجار الكريمة النفيسة كاللؤلؤ و الياقوت و الزمرد، و من معرفة كل حجر على حدة، كما لا غنى له عن معرفة الطيب بجميع أنواعه و الوقوف على أوصافه، أما الأمور العملية فنتخلص في معرفة الخط و آلاته معرفة أصناف الأقلام وصنعة براياتها و كيفية عمل الحبر و حل الذهب و إذابة اللازورد، ثم الكلام على نفس الخط و أصل وضعه و اختلاف الأمم فيه، و ما يختص من ذلك بالخط العربي من تنويع أقلامه التي أحدثها أئمة الكتابة و تباين أشكالها و اختلاف أوضاعها، و ما يستعمل منها في ديوان الإنشاء، و ما يلتحق بذلك من النقط و الشكل و الهجاء.... الخ.

و الكتاب بعد كل ما تقدم يبين حال اللغة العربية في عصورها المختلفة، و يبين انتشارها في البلدان المختلفة كفارس و ما وراء النهر وبلاد الروم و الهند و الصين، كما يقدم بيانا للنظم الإدارية التي سارت عليها الدول الإسلامية في بقاع الأرض، كما أنه يعد مرجعا أساسيا و موسوعة لا غنى لآثار الكتابة الديوانية منذ نشوء الدولة العربية الإسلامية إلى زمان المؤلف.

و مما يجدر ذكره قبل أن ندع الحديث في هذه الموسوعات، أنها تمثل نمازج الثقافات الإنسانية في ظلال الثقافة العربية الإسلامية، فإنك لا

تكاد تخالطها حتى تلمس آثار الثقافة الهندية و الفارسية و اليونانية ممتزجة مع الثقافة العربية، و إذا كانت آثار تلك الثقافات كانت قد تجلت في كتابات الجاحظ و التوحيدي و غيرهما من كتاب القرن الثالث و الرابع، فإنها أخصت في موسوعات هذا العصر لضرب من التنظيم الدقيق و التقسيم المسبق، كما بنيت على ضرب في التقيد بالموضوع تقيدا يبعدها عما عرفناه من استطراد في كتب السالفين، فموسوعة اللغة - و سيرد الحديث عنها لاحقا - تحصر نفسها عند المستطاع في موضوع اللغة، و الموسوعة البلدانية تحصر نفسها في البلدانيات و كذلك موسوعة الإنشاء ... و كثر في هذه الموسوعات التبويب و التقسيم كما أشرنا مما تستدعيه طبيعة هذه الكتب الكبيرة الشاملة.

هذا مسار واحد من مسارات التأليف بعد سقوط بغداد، و هو عصر عرف في تقسيماتنا المعاصرة لتاريخ الأدب باسم عصر الانحطاط أوالانحدار، و هي تسمية اقتبست عن المستشرقين و أثارت لدى الدارسين العرب المعاصرين تساؤلات جمة، و رفضها بعضهم فأطلق على هذا العصر اسم عصر الدول المتتابعة، و بعضهم سماه "عصر الإحياء" أوحركة الإحياء. بل إن الدكتور شوقي ضيف أظهر استهجانه لمصطلح الانحطاط و الانحدار و عبر عن ذلك بقوله " و لكن كيف يكون هذا الخمود و الركود في عصر ردت إلينا فيه قوانا الحربية الضارية و سحقنا الصليبيين و المغول سحقا ذريعا" بل كيف يكون عصر خمود و جمود و فيه ازدهر التصنيف و التأليف في مجالات العلم و المعرفة، و ألفت أمهات الكتب في الثقافة العربية في شتى فنون العلم و الأدب و الحق أنه لم يكن هناك ركود و لا خمود و لا تعطل ذهني، إنما كان هناك محافظة قوية بدافع

الاحتفاظ بالشخصية العربية أمام أعدائها المغيرين خشية أن تضعف أوتضمحل أو يصيبها أي وهن من شأنه أن يؤثر على قوانا العاتية".

مما يلحق بهذه الموسوعات معجمان كبيران، و هما و إن لم يكونا موسوعة بالمعنى المعرفي لهذه الكلمة، فإنهما يعدان من أضخم الموسوعات اللغوية في العربية، و يلحقها بالموسوعات السابقة كثرة ما اشتملا عليه في ثنايا المواد اللغوية من معلومات تاريخية و جغرافية و تفسير و حديث وذكر لعادات العرب و أمثالهم و أخبارهم ... و نعني بهذين المعجمين لسان العرب و تاج العروس.

أما لسان العرب فهو لابن منظور محمد بن مكرم ، الذي سبقت الإشارة إلى ولعة باختصار الكتب الكبيرة. و لد ابن منظور في مصر عام (٦٢٠هـ/١٠٣٢م) و خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، وولي قضاء طرابلس الغرب، و عاد إلى مصر و توفي فيها عام ٧١١هـ/١٢١١م و قد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد. كانت فكرة الموسوعة اللغوية واضحة في ذهن ابن منظور، فواضع الموسوعة لا يبقى إضافة جديدة، ولا اكتشاف مالا يكتشف، إنما يهمه جمع ما عرف و استعصاؤه و صياغته و ترتيبه في أقوم ترتيب، ليتمكن من الإفادة منه بأيسر السبل، لذلك نظر ابن منظور في الكتب المؤلفة في اللغة فاختار أغناها و أوسعها و أشملها، و أخذ مادتها و أخضعها التنسيق متبعا طريقة الإمام الجوهري في ترتيبه لمعجم الصحاح، فجاء كتابه جامعا شاملا مرتبا على أحسن ترتيب و أدقه، فجمع بين صحاح الجوهري و حواشي ابن بري (ت ٥٨٢هـ) عليه و تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري(ت ٢٧٠هـ) و محكم ابن سيده (ت ٤٥٨هـ) و النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) و صرح بعد ذلك

بقوله : " و ليس لي في هذا الكتاب فضيلة امت بها، و لا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم، و بسطت القول فيه، ولم أشبع باليسير، و طالب لعلم منهوم،فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل، فعهدته على المصنف الأول، و حمده وذمه لأصله الذي عليه المعول، لأنني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئا فيقال : فإنما آثمة على الذين يبدلونه، بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالفص، و ما تصرفت بكلام غير ما فيها من النص، فليعتد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة، و ليفن عن الاهتداء بنجومها، فقد غابت لما أطلعت شمسه" و يعد كتابه اليوم، كما عد في زمانه، فهو موسوعتنا اللغوية الأساسية، و إليها نعود في كل ما يتعلق باللغة من حيث دلالتها و صرفها، كما نرجع إليها في كل شأن من شؤون الحياة العربية القديمة، لأن المؤلف نثر هذه الفوائد في ثنايا المواد اللغوية، فكان فيه الأدب و التاريخ و الأمثال و الشعر و تفسير القران و لحديث... و لم ينحله من فوائد أخر...

أما تاج العروس فهو للإمام مرتضى الزبيدي محمد بن محمد، العلامة في اللغة و الحديث و علم الرجال و الأنساب ، أصله من واسط من العراق، و مولده في الهند في بلجرام عام (١١٤٥هـ/١٧٣٢م) و نشأ في زبيد باليمن، و رحل إلى الحجاز ، و أقام بمصر، واشتهر فضله وزاد اعتقاد الناس فيه، و توفي بالطاعون في مصر سنة (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) و ترك عددا كبيرا من المؤلفات تربو على المائة ، من أهمها تاج العروس و شرح إحياء علوم الدين صنفه في عشر مجلدات. أما تاج العروس فقد بني على القاموس المحيط، لذلك سماه " تاج العروس في شرح جواهر القاموس"

واستوعب المؤلف في كتابه بسبب نزعة الموسوعية و خلال شرحه للقاموس عشرات الكتب الأخرى و منها لسان العرب، و يلفت نظرنا في مصادر المرتضى تنوع موضوعاتها و تباعدها، فبالإضافة إلى المراجع اللغوية كانت هناك كتب أنساب الخيل و كتب السيرة النبوية ككتاب الروض الأنف للسهيلي و كتب القراءات ككتاب الحجة لابن خالويه و كتب التفسير ومعاجم البلدان كمعجم أبي عبيد البكري، و موسوعات الأنساب ككتاب الأنساب للسمعاني و مجمع الأنساب لأبي الفداء إسماعيل بن إبراهيم البلبيسي، و كتب التعاريف و الحدود و كتب الرجال، و هي كثيرة جدا وضخمة جدا، نذكر منها على سبيل المثال طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) و التكملة لوفيات النقلة للحافظ زكي الدين المنذري (ت ٦٥٦هـ) و تاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) و تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٢هـ) و البداية و النهاية لابن كثير (ت ٧٧٤هـ) و تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) هذا بالإضافة إلى كتب شروح الشعر و شروح المقامات و غيرها... إن استعراض مصادر تاج العروس يحتاج إلى بحث بمفرده، فقد اشتمل على لسان العرب إلى جانب اشتماله على ما ذكرناه و ما لم نذكره، و زاد على اللسان الكثير في اللغة و الجغرافية و التاريخ و أسماء الرجال من أعلام و محدثين، و جمع مادته و رتبها مما جاء في عشرات المصادر، فجاء الكتاب كما قال مؤلفه به " فجاء بحمد الله تعالى هذا الشرح واضح المنهج كثير الفائدة، سهل السلوك موصول العائدة.. عظم بحمد الله تعالى نفعه بما اشتمل عليه ، و غنى ما فيه عن غيره، و افتقر غيره إليه، و جمع من الشواهد و الأدلة ما لم يجمع مثله مثله، لأن كل واحد من العلماء انفرد بقول رواه أو سماع اداه،فصارت الفوائد في كتبهم مفرقة، و سارت أنجم الفضائل في أفلاكها، هذه مغربة

وهذه مشرقة، فجمعت منها في هذا الشرح ما تفرق و قرنت بين ما غرب منها و بين ما شرق، فانتظم شمل تلك الأصول و المواد كلها في هذا المجموع، و صار هذا بمنزلة الأصل و أولئك بمنزلة الفروع، فجاء بحمد الله تعالى وفود البغية و وفود المنية، بديع الإتقان صحيح الأركان ... و ليس لي هذا الشرح. فضيلة أمت بها، و لا وسيلة أتمسك بها سوى أنني جمعت ما تفرق في تلك الكتب من منطوق و مفهوم..." و أتى تاج العروس معلمة من معالم اللغة ، و مرجعا من مراجع الأدب و التاريخ و الرجال و الأنساب، وورد فيه من المستدركات ما يؤلف معجما قائما بنفسه، فلا عجب أن احتفل مؤلفه بإنجازه بعد أن قضى في تصنيفه أربعة عشر عاما (١١٧٤هـ- ١١٨٨ هـ) فأولم وليمة حافلة جمع فيها شيوخ العصر و طلاب العلم، فأعجبوا به و شهدوا بفضله، و كتبوا عليه التقاريظ نظما و نثرا.

هذه أهم الموسوعات الشاملة و اللغوية التي ألفت في العصر المملوكي و العثماني، على أن ما ذكرناه يجب ألا ينسينا الكتب الأخرى ذات الطابع الموسوعي الاختصاصي ككتب التاريخ الكبيرة مثل الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) و نفح الطيب للمقري (ت ١٠٤١هـ) و الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ) وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) و تاريخ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) و كتب أصول الفقه الهامة ككتاب كشف الأسرار لعبد العزيز البخاري (ت ٧٢٠هـ/ ١٢٢٠م) وهو شرح عظيم لأصول فخر الإسلام أبي الحسن علي بن محمد بن حسين البنردوي (ت ٤٨٢هـ) و كتاب روضة الطالبين في الفقه الشافعي للإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) و قل مثل ذلك في غيرها من موسوعات الفقه و الأحكام، و أعرض ههنا لموسوعات

النحو العربي الكبيرة التي تمثلت في الشروح المبسوطة ، و حسبي أن أشير إلى مغني اللبيب و ما ألف حوله و حول شواهده من الشروح و الحواشي، وإلى خزانة الأدب التي صنفها عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٢هـ) . كذلك نذكر في هذا المجال ما قدمه الإمام الشوكاني محمد بن علي (ت ١٢٥٥هـ) فقد صنف تفسيرا شاملا سماه فتح القدير ، كما صنف " السيل الجرار " في التراجم و البدر الطالع، أما موسوعته الفقهية فسماها نيل الأوطار.

و قبل أن أدع هذا الاستعراض لابد من الإشارة إلى المقريزي (ت ٨٤٥هـ) مصنف الخطط و السلوك، و إلى السيوطي (ت ٩١١هـ) الذي صنف في عدد من الفنون طائفة من المؤلفات الأساسية كالمزهر في اللغة وعلومها و الإتقان في علوم القران و الدر المنثور في التفسير بالمأثور وجمع الجوامع في شرح جمع الجوامع في النحو، و الأشباه و النظائر في النحو و غيرها و إلى ابن حجر العسقلاني و إلى الإمام القسطلاني و غيرهم من الشراح الكبار..

إن الأمر سيطول إن استرسلنا في التعداد، و ما أهملناه أصناف ما ذكرناه، فالغرض الذي نبتغيه هو إعطاء لمحة عامة عن غزارة التصنيف في شتى المجالات بعد سقوط بغداد، و أظن أن ما قدمناه أصبح كافيا. و لكن يجب أن نتوقف لنتساؤل أين المصنفات ذات الطابع الفكري و الفلسفي و ما موقعها في حركة التصنيف هذه؟

و الجواب أن حركة التصنيف الفلسفي تكاد تكون مبدوعة في هذا العصر، فان هذه الحركة التي بلغت أوجها في القرنين الرابع و الخامس لم يتح لها أن تستمر صعدا في مسارها و تقدمها، فقد جوربت الحركات الفكرية من السلطة و من الفقهاء، و أصبح الاهتمام بالعلوم العقلية في هذا

العصر تهمة خطيرة، قال السبكي في ترجمة لكمال الدين بن يونس " فقد كان كمال الدين ابن يونس يتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه". وتمثل فتوى ابن الصلاح الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ) مدخلا قائما جدا لتاريخ الفلسفة و المنطق في هذا العصر، فقد نص ابن الصلاح على أن الفلسفة تسر، و أن المنطق هو مدخل الفلسفة، و مدخل الشر تسر ، وليس الاشتغال بتعليمه و تعلمه من إباحة التسارع، و أيد أبن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بعد ذلك هذه الفتوى و صنف كتابين، أحدهما نقض المنطق و الثاني" الرد على المنطقيين" و ذهب إلى أن المنطق علم لا ضرورة له، فهو علم لا يحتاج إليه الذكي و لا ينتفع به البليد، و تابعه السيوطي و صنف " أصول المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام " متكئا على كتاب ابن تيمية. و ليس معنى هذا أن علم المنطق لم يعد له وجود، فجمهور المسلمين كانوا من الأشاعرة، و كان علم الكلام عمدة علمائهم مذهبهم يعتمد الجدل، و المنطق أداة من أدواته " و تأثير المنطق كان أعمق و أرسخ من أن يستطيع التخلص من سيطرته أحد من المشتغلين بمسائل الفكر و العلم مهما اختلفت اتجاهاتهم الفكرية" و لكن من الجدير بالذكر هنا أن المنطق الذي كان يدرس في هذا العصر هو المنطق الذي تشكل على أيدي المتأخرين بعد أن غيروا من اصطلاحه و أبقوا منه على ما يناسبهم و يحتاجون إليه، قال ابن خلدون " فتكلموا في القياس من حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة، و هي الكتب الخمسة : البرهان و الجدل والخطابة و الشعر و السفسطة، و ربما يلم بعضهم باليسير منها إلماما وأغفلوها كأن لم تكن و هي المهم المعتمدة في هذا الفن" و يمكننا أن نزيد قول ابن خلدون إيضاحا بتعقيب حسين مروة موضحا ما حصل على أيدي المتأخرين " فقد عمدوا إلى عزل منطق ارسطو عن دلالته المضمونية، أي

مادته المعرفية، و حصروه في جانب وحيد هو الجانب الشكلي الصرف" و لم يزدهر الدرس الفلسفي في هذا العصر، فالاتجاه الديني كانت له السيادة، و كان مضادا للفكر الفلسفي، و الدولة كانت تحارب هذا الفكر أيضا ، و أسماء المتفلسفية التي عرفناها من ذلك العصر، نسبت إلى التعمق في علوم الأوائل دون أن تنسب إلى الإبداع في جو كله عداء، و يكفي أن نذكر قول الإمام الذهبي لندرك مدى العداء لهذه العلوم و أصحابها، قال : " و ما دواء هذه العلوم و علمائها القائمين بها علما و عملا إلا التحريق و الإعدام من الوجود."

و لا بد لنا من التعريج على التصوف الذي اشتد عوده، و نما و انتشر انتشارا واسعا، و نمت منه حركة تصنيف واسعة في العصرين المملوكي و العثماني و يكفي أن نشير إلى المرتضى الزبيدي و شرحه إحياء علوم الدين شرحا مبسوطا، و إلى مؤلفات الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٢هـ) و إلى حكم ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ) صاحب كتاب الحكم العطائية و شروحه و إلى عبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣هـ) صاحب المصنفات الصوفية الكثيرة التي لا تزال متداولة حتى يومنا هذا ...

و قد نشط التصنيف في الجغرافية و يقدم لنا في هذا المجال إغناطيوسي كراتشكوفسكي (ت ١٩٥١م) في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي" معلومات قيمة عن حركة التأليف في هذا الفن، فهناك كتب الرحلات و كتب البلدانيات و كتب الملاحة و أعلام هذا الفن كثر منهم ابن دقماق و المقريزي و ابن إياس و العيني و غيرهم.

إن الأمر لن ينتهي إذا أردنا أن نقف أو نمر بكل علم من العلوم، أو نذكر أهم مصنفاته، فهناك علم الفلاحة و الفلك و الطب و الفقه بمختلف

مذاهبه و كتب العقائد و غير ذلك، و أعتقد أن ما قدم حتى الآن يستطيع أن يسهم في تكوين فكرة مفادها أن حركة التصنيف عند العرب لم تتوقف بسقوط بغداد، بل نشطت و نمت و صنفت المراجع الموسوعية الأساسية بالإضافة إلى عشرات الحواشي و كتب الأدب و المختارات و المعاجم مما لا يزال معتمدنا في المراجعة إلى اليوم.

و بعد : فما قيمة هذا التراث الذي صنف بعد سقوط بغداد؟ أ صحيح أنه تكرار ليس فيه ابتكار و إنما هو تعويض عما تلف و ضاع؟ أ هو مجرد ركام من المعلومات قدمت مرتبة منسقة؟ إن الباحثين في ذلك القرون من معاصرينا يختلف رأي أحدهم عن الأخر اختلافا كبيرا، و سنقدم خلاصة عن آرائهم محاولة للوصول إلى تصوير معين. فالعلامة الشيخ محمد أبوزهره يرى أن هذه القرون (السادس و السابع و الثامن...) " امتازت بكثرة العلم لا بكثرة الفكر، فقد كانت المعلومات كثيرة جدا، و تحصيلها كان بقدر عظيم، و عكوف الناس عليها كان كبيرا، و لكن التفكير المطلق في مصادرها و مواردها و المقايسة بين صحيح الآراء و سقيمها مقايسة حرة من التعصب الفكري و التعبير المذهبي لم يكن بقدر يتناسب مع تلك الثروة المترية التي توارثها الأجيال، فقد كانوا يتلقونها و سيحتفظون عليها، و لكن لا يقدرونها حق قدرها بالنظر الفاحص المجرد، أو النظر الذي يعم كل الجوانب و لا ينحاز إلى جانب من الجوانب، و ينظر من زاويته دون سواه". و نجد على الضفة الأخرى من ضفاف البحث رأيا آخر إن لم يكن مضادا كل التضاد فهو مختلف تمام الاختلاف، فالدكتور حسن حنفي يرى "أن البحث التقريري نوع لم يعرفه تراثنا بل إن الشروح و الملحقات ذاتها لم تكن مجرد جمع مادة أو إسقاط أخرى، بل كانت محاولات فلسفية تزيد

من نطاق التحليل الفيلي و بيان أسسها النظرية، هذه هو الشرح، أو أن تركز على الأفكار الأساسية التي تبرز من خلال التحليلات و البراهين ... و هذا هو التلخيص."

و الموازنة بين الرأيين تقتضي مراجعة عينات و نماذج من التراث المختلف بشأنه، و تستلزم النظر فيه لنرى أ كان تكرارا أم محاولة فلسفية لزيادة نطاف التحليل، و لدى المراجعة نجد ذلك التراث يعطيك ذلك كله، فهناك من المصنفات مما ليس فيها إلا الجمع و التكرار حقا، حتى الترتيب قد لا تجده فيها، و هناك من المصنفات ما ليس فيه جديد إطلاقا سوى الترتيب و التنسيق ككتاب نهاية الأرب مثلا. و أكد هناك من كتب ذلك العصر ما اشتمل على دقة النظر و براعة التحليل و ذكاء المحاكمة كشروح النحو الموسعة و كالحواشي و الشروح التي صنفت حول كتاب المواقف لعضد الدين الألجي كحواشي عبد الحليم السيالكوتي، وكالحواشي التي ألفت في أصول الفقه.. و لكنك لن تجد هذا في كل حاشية أو شرح كما ذهب الدكتور حنفي. و الحقيقة التي تبدو ظاهرة للمتأمل أن عنصر الإبداع المحض، أو لنقل الإبداع الغالب كان ضئيلا و ضعيفا، فعصور المحافظة تميل إلى الركون و الوقوف، و تفضل اجترار الماضي لأنها عاجزة عن إبداع ما يملأ الحاضر و يطل على المستقبل. و إذا كان عنصر المحافظة قد كان معلم قوة في الشخصية العربية جعلها تتصدى للغارات الماحقة، و حفظ للأمة شخصيتها في وجه قوي البغي و العدوان، فإنه ما لبث أن انقلب إلى عنصر ضعف و أسهم في إغراق الحاضر بالماضي، و انكفأ الشرق على نفسه. يردد ما قاله الأقدمون، و هو في عزلة عما يجري في الغرب و على

مسافة قريبة منه، حيث انتقلت ثمرات حضارته إليهم و بدأت تتفاعل في مجتمعات جديدة لتكون حضارية جديدة غازية.

و حركة التصنيف في كل عصر لا يمكنها إلا أن تكون مرآة للعصر و ملبية لحاجاته، فإذا نبغ مصنف و سبق عصره في إبداعه، و كان العشير عصر محافظة، لم يلق إبداعه الرعاية و القبول، لأنه غرس في غير تربته و غير أوانه، و من هنا لم يكن لمفكر كبير كابن خلدون صاحب المقدمة من أثر في عصره، و في حركة التصنيف، بل إن أهمية ستبرز بعد ذلك وسيعرفه الأوروبيون قبل أن يعرفه العرب.

و لا بد أن نذكر في النهاية أن حركة التصنيف الواسعة التي تحدثنا عنها إنما كانت في أوساط العلماء و طلبة العلم و المؤسسات العلمية كالمدارس، و لم تكن ذات صبغة عامة، فليس هناك طباعة نشر الكتب، وليست أحوال الناس بالحسنة حتى تدفعهم لاستنساخ تلك المؤلفات، بل إن الجهل العام هو الأشيع، ذلك الجهل الذي انتشر ثم انتشر حتى وصل حال الناس إلى ما هو عليه في العصر العثماني، و يجب ألا ننسى أن الطباعة لم تدخل بلادنا إلا بعد عام ١٨٢٠ و على نحو شبه فاعل، و لعل ما آل إليه أمر الناس من جهل ما صار إليه و أمر الدولة من صنف هو الذي شجع أن يطلق على هذا العصر اسم الانحطاط أو الانحدار على الرغم من نشاط حركة التصنيف، فقد كانت حركة العلم في عزلة أو شبه عزلة عما يجري حولها، و كانت في عزلة تامة عما يجري في العالم.

و بعد فإني أمل أن أكون بعد أن قدمت ما قدمت بإيجاز، قد رسمت صورة لها حظا من الوضوح، و حظ أخر من العمق، لعصر امتد عدة قرون، و ظهر فيه عشرات الشعراء و العلماء و المؤرخين و الفقهاء و

الرحالة... كلهم عني بالتصنيف و تأليف الرسائل و الكتب و جمع الفتاوى و تأليف الطبقات مما يحتاج كل جانب منه إلى بحث مطول خاص.

مراجع البحث:

- ابن تيمية : حياته و عصره، آراؤه و فقهه، محمد أبو زهرة، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ م

- ابن تيمية، محمد يوسف موسى - المؤسسة المصرية - أعلام العرب رقم ١٩٦٢/٥م

- الأعلام، خير الدين الزركلي ط ٣

- البحث الأدبي ، د/ شوقي ضيف، دار المعارف بمصر

- تاج العروس، المرتضى الزبيدي، ط، الكويت ١٩٦٦

- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٧م

- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون

- تاريخ الأدب الجغرافي : اغناطيوسي كراتشكو فسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ١٩٦٥

- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان، ترجمة نبيه اميد فارسي ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٧٧

- تراث الإنسانية/ مجلة دورية ، القاهرة

- التراث و التجديد: د/ حسن حنفي - بيروت ١٩٨١

- التصوف الإسلامي و أثره في الأدب و الأخلاق، د/ زكي مبارك، مصر ١٩٥٤

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : القلقشندي، دار الكتب المصرية

- طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي، المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٤هـ

- علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، كارلو نالينف روما ١٩١١م

- القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، د. عبد اللطيف حمزة، القاهرة ١٩٦٤

- كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون: حاجي خليفة - مكتبة المثنى، بغداد

- لسان العرب: ابن منظور ط دار صادر ، بيروت

- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، محمد أحمد جاد المولى و رفاقه، ط، القاهرة

- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٢٢هـ

- النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية، حسين مروة، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٠م

نهاية الأرب، شهاب الدين النويري، دار الكتب المصرية